الفصل الأول

المسالة الشرقية
ما قبل الحروب الصليبية

المسألة الشرقية في العصور القديمة

تمثّل فترة الحروب الصليبية مرحلة من مراحل الصّراع الأوروبي الطويل ضد آسيا . بدأ هذا الصراع منذ أن وجدت أوروبا في نفسها - متمثلة بالحضارة الهيلينية - القدرة على مواجهة العالم الشرقي المتمثّل آنذاك بالإمبراطورية الفارسية ، وهذا ما أدى إلى قيام الحروب الميدية التي تم من خلالها إحكام السيطرة الإغريقية على آسيا (490-469 ق . م) .

ثم تحت قيادة الإسكندر الأكبر (336-323 ق . م) استمرّ الهيلينيون قُدماً في حملاتهم التوسعية فأخضعوا الإمبراطورية الفارسية ، حتى تجاوزت حدود النّفوذ الأوروبي نهر الهندوس . وأعقب ذلك ردة فعل آسيوية قام بها البارثيون فردّوا الهيلينيين على أعقابهم إلى غربي نهر الفرات (129 ق . م) . وخلال أربعة قرون ونصف منذ عام 64 ق . م حتى 395 م أخذت روما ، وريثة الولايات الإغريقية والوصيّة على الحضارة الهيلينية ، على عاتقها مهمّة الدفاع عن هذه الحدود ضد إيران البارثية ، ثم (بدءاً من عام 224 م) ضد إيران الساسانية .

بعد ذلك ، أخذ الصراع بين روما والعالم الإيراني منحىً خاصاً ، فقد تغيّر وجه المسألة الشرقية كلياً عندما قام الإمبراطور قسطنطين Constantin عام 325 م باعتناق الديانة المسيحية قطعياً ، وازداد عمق هذا التغيير بدءاً من عام 395 م عندما تحوّلت الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطورية بيزنطية ، واكتسبت بوضوح طابعاً دينياً . وصارت عبارة «الرّوميّة» Romanité بالمفهوم البيزنطي لهذه الكلمة ، مرادفة لمعنى الأرثوذوكسية المسيحية ، فيما صارت إيران من جهة أخرى ، منذ الإصلاحات الساسانية بها عام 224 م ، مقترنة بالعقيدة المزدكيّة .

هكذا نرى أن المسألة الشرقية ، التي كانت حتى ذيّاك الحين مجرد نزاع عرقي وحضاري ، قد أضحت نزاعاً دينياً . وهذا ما أدّى بالنتيجة إلى اندلاع حرب مقدسة بين الطرفين ، كالحرب التي شنّها إمبراطور الشرق هراكليوس Héraclius (هرقل) بين عامي 622–628 م على الملك السّاساني خُسرو الثاني . وقد كان الفرس قبل ذلك قد استولوا على أورشليم عام (614 م) وانتزعوا منها صليب المسيح الأصلي . ثم في عام 630 م تمكن هراكليوس المنتصر من استرجاع الصليب وإعادته باحتفال مهيب إلى كنيسة القبر المقدّس بالقدس . لقد كانت هذه في الواقع باكورة ما يسمى بالحملات الصليبية .

الفتوحات الإسلامية

بينما كانت فارس وبيزنطة تنهكان نفسيهما في أُوار الحروب الطويلة الطاحنة قام محمّد[1] (570–632 م) بتوحيد قبائل العرب تحت عقيدة جديدة (الإسلام) ، أفضت إلى حثّ العرب لغزو هاتين الإمبراطوريتين في آن واحد .

ولا يمكن لنا تعليل الانتصارات الإسلامية الساحقة[2] وفتوحاتها بمعزل عن كون الثورة الإسلامية قد طرأت في خضمّ يقظة الشرق وتأهّبه لإيقاف زحف الحضارة الهيلينية بشكلها الأخير ، أي الأرثوذوكسية البيزنطية . وقبل ظهور الإسلام بما يزيد على القرنين من الزمان ، كانت الإمبراطورية الإغريقية الرومانية تستمدّ مشروعية وجودها في الشرق من خلال كونها تتمثّل عقيدة دينية . فظهرت في المقابل في العالم الإسلامي من خلال شرائع القرآن دعوة «الجهاد» ، أي الحرب المقدّسة الإسلامية . ويبدو فضلاً عن ذلك أن الفتوحات الإسلامية قد أفادت في كل من سورية ومصر ممن تعاطف معها من المذاهب المسيحية القائلة بوحدانية طبيعة المسيح monophysisme ، وهي الملل السّريانية والقبطية التي ناصبتها الأرثوذوكسية البيزنطية العداء كمذاهب هرطقية منشقّة .

---

(1) رسول الله ، صلّى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين وأصحابه المنتجبين .

(2) ما كاد القرن الهجري الأول ينقضي ، حتى كانت حدود الدولة الإسلامية الجبّارة آنذاك قد تخطّت آفاقاً شاسعة في قلب العالم القديم ، في قارتي آسيا وأفريقيا ، فامتدّت يومها من حدود الهند والصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال القفقاس شمالاً إلى الصحراء الأفريقية الكبرى جنوباً .

ومما يعلّل الانتصارات الإسلامية أيضاً بعض الشيء ، تلك السهولة النسبية التي استطاع بها المسلمون انتزاع سورية وفلسطين من أيدي البيزنطيين (معركة أجنادين 634 م ، ومعركة اليرموك 636 م ، وفتح القدس 638 م) ، وكذلك فتح مصر (فتح الإسكندرية 643 م) دون مقاومة تذكر ، وفتح شمال أفريقية بدءاً من عام 647 م ، أو بالأحرى لاحقاً في 670 م (تأسيس القيروان) . وعند هذا التاريخ الآنف الذكر ، كانت رقعة الإمبراطورية البيزنطية في آسيا قد انحسرت إلى ما لا يزيد عن شبه جزيرة الأناضول .

المقاومة البيزنطية
في القرنين السابع والثامن

توصّلت الفتوحات الإسلامية إلى حد من الانتصارات المتلاحقة كادت معها أن تؤدي إلى القضاء المبرم على الإمبراطورية البيزنطية ، وذلك منذ انطلاقتها الأولى ، فبين الأعوام 673-677 م بلغ الاجتياح الإسلامي أسوار القسطنطينية Constantinople نفسها بعد اجتياز بحر مَرْمَرَة ، وحاصر المسلمون المدينة التي لم يتيسّر لعاهلها لإمبراطور قسطنطين الرابع إنقاذها إلا بفضل اختراع النار الإغريقية feu grégeois . وفي عام 717 م ، تمكن جيش إسلامي بعد أن قطع آسيا الصغرى من أقصاها إلى أقصاها ، من اجتياز مضائق الدّردنيل نفسها ، وبالتالي محاصرة القسطنطينية عن طريق البر . ولقد أجبر الإمبراطور ليون الثالث الإيسوري Léon III l'Isaurien هذا الجيش على التراجع والانسحاب (عام 718 م)[1] .

ينبغي لنا - نحن الأوروبيين - الاعتراف بحق لهؤلاء الأباطرة الأشدّاء الذين حكموا في تلك «الظروف العصيبة» بفضلهم في إنقاذ «معقل» الحضارة الأوروبية . فإن أيام القسطنطينية المشهودة في عامي 717-718 م ، التي صدّ فيها ليون الإيسوري زحف الهجوم الإسلامي في الشرق ، لا تقلّ في أهميتها بشيء عن يوم معركة پواتييه Poitiers عام 732 م ، الذي أوقف فيه قائدنا الفرنسي شارل مارتل Charles Martel هجوماً آخر مشابهاً في الغرب .

---

(1) أمر بهذه الغزوة سليمان بن عبد الملك (98 هـ) فأرسل أخاه مسلمة إلى القسطنطينية حتى يفتحها ، فأقام عليها شتاءً وضيّق الخناق عليها شهوراً قبل انسحابه .

وفي عام 739 م أحرز ليون الإيسوري وابنه قسطنطين الخامس نصراً جديداً على المسلمين في آكروينون Akroïnon من أراضي فريجيا ، وحقق هذا النصر فترة مؤقتة من الأمن لآسيا الصغرى . لكن عندما انتقلت الخلافة الإسلامية إلى بني العبّاس[1] عاودت الغارات الإسلامية على شبه جزيرة الأناضول سيرتها الأولى ، وتكرّرت حملات جيوش الخليفة هارون الرشيد (786-809 م) على البيزنطيين فراحت تدكّ مواقعهم في كل من كاپادوكيا وفريجيا .

وفي عام 838 م اقتحم المسلمون مدينة آموريوم Amorium الواقعة في قلب فريجيا وانتهبوها ، وأما قادة حاميتها البيزنطية فقد أُبقو في الأسر مدة طويلة ، ثم صدر الأمر بإعدامهم لرفضهم اعتناق الديانة الإسلامية (عام 845 م) ، وقد اشتهر هؤلاء باسم «شهداء آموريوم الإثنان والأربعون»[2] . وتوضح هذه الحادثة بجلاء كيف أن تلك الحروب القديمة بين المسلمين والبيزنطيين يمكن اعتبارها بشكل أو بآخر بمثابة «حروب صليبية باكرة» .

ومن جهة أخرى ، كان المسلمون قد أثبتوا موطئ قدم لهم في جزيرة قبرص (686 م) ، واستطاعوا استخلاص جزيرة كريت من البيزنطيين (827 م) .

الانتصارات البيزنطية

تغيّر مجرى الأحداث في منتصف القرن التاسع بسبب انهيار خلافة بني العبّاس بعد انحدارها المتدارك ، وسرعان ما باتت سلطة حكم الخلفاء العباسيين مقتصرة فقط علي العراق (بغداد) ، بينما توزّعت باقي أقسام الإمبراطورية العباسية الدويلات الإسلامية الإقليمية الأخرى . كان من نتيجة ذلك أن آلت مهمة الدفاع عن ثغور العالم الإسلامي ضد البيزنطيين إلى أسرة حاكمة صغيرة محليّة هي أسرة أمراء حلب الحمدانيين (944-1003 م) الذين لم يكونوا بقادرين على أداء مثل هذا الدور الخطير بمفردهم .

(1) وكان ذلك عام 750 م (132 هـ) ، عندما تغلب العباسيون على أبناء عمومتهم الأمويين ، ودمّروا عاصمتهم دمشق بقيادة عبد الله بن علي العباسي ، وصارت بغداد عاصمة الخلافة بدلاً من دمشق ، حتى القرون الوسيطة .

(2) يحتفل الروم الأرثوذوكس بعيد الشهداء الـ 42 في 9 آذار من كل عام ، ولو أن الشائع الآن أن عددهم 40 . أما أموريوم فهي عمورية التي غزاها المعتصم العباسي ودمّرها .

بالإضافة إلى ذلك ، قامت بمصر خلافة جديدة منفصلة (969-1171 م) هي خلافة الفاطميين ، الذين كانوا قبل ذلك (منذ 908 م) حكاماً لتونس ، وكان هذا الانفصال خطيراً للغاية ، لأنه لم يندرج فقط على نطاق الحكم ، وإنما كذلك على النطاق الديني : وذلك بين الخلافة العباسية ، ذات المذهب السنّي الشائع في آسيا الإسلامية برمتها تقريباً ، والخلافة الفاطمية ، ذات المذهب الشيعي المنتشر في مصر ؛ وكانت شقّة الخلاف العقائدي بين الطرفين حادّة وعميقة كتلك التي أصابت العالم المسيحي ، وأدّت إلى فصل بيزنطة عن البابوية .

بيد أنه في نفس الوقت الذي أثمرت فيه بذور الشقاق والفرقة في العالم الإسلامي ، كانت الإمبراطورية البيزنطية أثناء حكم الأسرة المقدونية (867-1057 م) بدأت تشهد نهضة باهرة وعهداً جديداً من القوة . وبدأ الغزو المسيحي المعاكس بقيادة القائد البيزنطي نيسيفور فوكاس[1] Nicéphore Phocas ، الذي استرجع كريت من المسلمين (961 م) .

وعندما أصبح إمبراطوراً (963-969 م) قام فوكاس باسترجاع قبرص منهم أيضاً (964-965 م) ، وكيليكية Cilicie (احتلال أدَنة عام 964 م ، وطرسوس 965 م) . وفي عام 968 م وجّه إلى الشام حملة جرّارة أحرق في خلالها حمص وضواحي طرابلس كما ضمّ منطقة اللاذقية إلى الإمبراطورية البيزنطية . وفي عام 969 م تمكن قائده ميخائيل بورتزيس Michel Bourtzès من انتزاع مدينة أنطاكية Antioche الكبيرة من أمير حلب ، وقد بقيت أنطاكية في أيدي البيزنطيين حتى عام 1078 م (أو بقيت نظرياً كذلك حتى عام 1085 م) .

من بعد نيسيفور فوكاس ، قام جان تزيميسكيس[2] Jean Tzimiskès الذي خلفه على عرش القسطنطينية (969-976 م) هو الآخر بإرسال حملة ظافرة إلى الشام الإسلامية (975 م) . بلغ هذا الإمبراطور دمشق عن طريق حمص وبعلبك ومنها اخترق الجليل ، وقد وصلتنا عنه رسالة كتبها (ما لم تكن مزوّرة) تبيّن قيامه بالحج إلى الأماكن المقدّسة في الناصرة وجبل الطُور . لكنه بدلاً من توجيه قواه لانتزاع القدس من الحكم الفاطمي انصرف إلى استرجاع أنطاكية عن طريق الساحل اللبناني ، وقد نجح في ذلك .

---

(1) سمّاه المؤرخون العرب المعاصرون لتلك الفترة : «نقفور» ، وهو أصحّ كلفظه اليوناني .
(2) سمّاه المؤرخون العرب : «يوحنا ابن الشمشقيق» .

وفي الواقع ، كان أهم ما يعيق البيزنطيين عن الاستمرار في غزو فلسطين هو استحالة أخذهم لمدينة طرابلس الساحلية ، التي يسميها البعض نظراً لموقعها الاستراتيجي الحصين «جبل طارق السوري» Gibraltar syrien . بينما سنرى كيف أن الفرنجة الصليبيين ، في عام 1099 م ، قد تميّزوا بقدر أوفر من الإقدام مما مكّنهم من التوغل أعمق من طرابلس نفسها .

عندما انتقل الحكم في بيزنطة من بعد تزيميسكيس إلى الإمبراطور باسيليوس الثاني Basile II (976-1025 م) ، قام هذا الأخير بترسيخ السيطرة البيزنطية على شمال سورية بنجدته لأمير حلب عندما هاجمه فواطم مصر . ولكنه مع ذلك لم يأت بأية حركة عندما فرض الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله على النصارى تضييقاً قاسياً (1009-1010م)[1] ، حتى أن كنيسة القبر المقدّس (القيامة) بالقدس هُدمت وسوّيت بالأرض بأكملها تقريباً .

ثم كانت آخر أعمال الغزو البيزنطي المعاكس ضد المسلمين احتلال الرَّها (أورفة) Edesse الواقعة شرقي نهر الفرات بالجزيرة العليا . افتتحها القائد الملكي جورج مانياكيس Georges Maniakès بين عامي 1030-1031 م ، وبقيت الرَّها تحت السيطرة البيزنطية حتى عام 1086-1087 م .

صحيح أن الغزو البيزنطي المعاكس في القرن العاشر الميلادي قد استطاع أن يعيد إلى الإمبراطورية القديمة قسماً من شمال سورية (أنطاكية واللاذقية) ، وكذلك الرَّها شمال غرب الجزيرة ، ولكنه مع ذلك لم يتوصل إلى بلوغ مدينة القدس نفسها .

وعلى عكس ما كان مأمولاً من هذا الغزو ، فإنه فشل في تحقيق غايته كحملة صليبية . على أن إعادة تنصير أنطاكية والرَّها على أيدي البيزنطيين كانت لها فيما بعد نتائج هامة ، فقد وجد الصليبيون عام 1098 م في مسيحيي هاتين المدينتين نقطة ارتكاز لا غنى عنها ، ومن هناك بالذات (من أنطاكية والرَّها) بدأوا غزواتهم في سورية .

(1) الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي ، منصور بن العزيز ، سادس الخلفاء الفاطميين بمصر ، حكم بين 996-1021 م . كان في السنوات الأولى من حكمه متفانياً في خدمة البلاد والعمل على ازدهارها ، لكن نهاية عهده اشتهرت بالظلم والاستبداد .

دور أرمينيا في المقاومة المسيحية

في خضمّ الصراع المستعر بين أوروبا وآسيا ، أي بين المسيحية والإسلام ، ثمّة دور هام لعبته الأمة الأرمنية أثّر في مجريات الأحداث ، نبيّنه فيما يلي :

في غضون القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، وقعت أرمينيا فريسة لتنازع القوتين العظميين آنذاك : الرُّومانية من جهة ، والإيرانية (البارثية ثم الساسانية) من جهة أخرى . ولكن هذا الوضع تغيّر عندما تحوّل الملك الأرمني تيريدات الثالث Tiridate III إلى الديانة المسيحية . وفي هذا النزاع القائم بين أوروبا وآسيا انحازت أرمينيا إلى الجانب المسيحي ، أي بعبارة أخرى إلى أوروبا .

لم يجد الأرمن ثمّة من غضاضة في ربط مصيرهم بغيرهم من الدول ، وليس ينطبق ذلك فقط على المحيط اليوناني الروماني بل وحتى بالنسبة للمحيط الإيراني ، إذ أُلحقت أرمينيا بإيران عندما تخلّى الإمبراطور البيزنطي تيودوس Théodose عنها لصالح الإمبراطورية الساسانية في عام 390 م تقريباً . إلا أن الأرمن كانوا يثورون على الساسانيين كلما حاولوا حملهم على ترك ديانتهم المسيحية (كثورة وارطان ماميكونيان ومقتله البطولي عام 451 م) ، وأخيراً سمح البلاط الفارسي لأتباعه الأرمن بممارسة طقوسهم الدينية بحرّيّة (عام 485 م) .

غير أن رجال الإكليروس الأرمني قاموا حوالي عام 527 م باعتناق مذهب الوحدانية monophysisme (القائل بوجود «طبيعة» واحدة للمسيح)[1] ، وهذا ما وضع أرمينيا في موضع الخلاف الجذري مع الأرثوذوكسية اليونانية . ولكن أرمينيا ضمنت بذلك استقلالها الروحي التام : فإن معموديتها المسيحيّة حفظتها من الانصهار في الحضارة الفارسية (وكذلك في الإسلام فيما بعد) من جهة ، بينما وقاها مذهب الوحدانية من الانصهار في بوتقة بيزنطة من جهة أخرى .

بعد انهيار الإمبراطورية الساسانية قام المسلمون بغزو أرمينيا (كفتح دوڤين Dovin العاصمة الأرمنيّة عام 642 م) ، لكن رغم وقوع الأرمن تحت السيطرة الإسلامية استطاعوا الحفاظ على عقيدتهم المسيحية . وعموماً كان الخلفاء يعيِّنون على أرمينيا في الغالب حكاماً من أبناء الأسر الإقطاعية الأرمنيّة نفسها ، وبخاصة من أفراد أشهر أسرتين كبيرتين : ماميكونيان وبقرادونيان .

---

(1) ظهر هذا المذهب في القرن الخامس الميلادي ، وحُرِّم في مجمع خلقيدونة عام 451 م .

وممن تولى حكم أرمينيا من أسرة بقرادونيان آشود ميدز Achot Medz المعروف بالأكبر (856–890 م) . وفي عام 885 م قام بلاط بغداد بإعادة نظام الملكية الأرمنيّة لصالح هذا الأمير . على أن ملوك آل بقرادونيان اللاحقين الذين امتدت أملاكهم في منطقتي قارص وآني لم يتمتعوا بسوى سلطة إسمية على أمراء الأرمن الآخرين . ومن العائلات الأرمنيّة الأخرى التي تمتعت بقدر من النفوذ آنذاك ، أسرة آرتسرونيان المحلّية الحاكمة في واسپوراكان (شرقي بحيرة وان) . أما ثاني ملوك بقرادونيان فكان الملك سمباط الأول Sembat I^er^ ، المعروف باسم «الشهيد» (890–914 م) ، الذي انتهى حكمه بقبض المسلمين عليه وقتله .

ثم عادت الأمور إلى مجاريها بتنصيب ابنه ملكاً ، وهو آشود الثاني آركا «الرجل الحديدي» (914–929 م) ، الذي يؤرَّخ عهده كبداية للاستقلال التام لأرمينيا ، ولكن هذا الاستقلال تعرض للاختلال أثناء حكم الملك آشود الثالث الشفوق (953–977 م) ، الذي وصل في ضعفه إلى الحد الذي حمله على التنازل لأخيه عن مدينة قارص ، العاصمة القديمة ، بينما أقام هو في آني (عام 962 م) ، وهذا ما أدى إلى استفحال التجزئة الأرمنيّة . ويضاف إلى هذه الانقسامات الإقطاعية تفاقم المجادلات اللاهوتية العنيفة بين الكنيسة الأرمنيّة (ذات مذهب الوحدانية) والكنيسة البيزنطية (ذات العقيدة اليونانية الأرثوذوكسية) .

وبالرغم من كل هذه المشاحنات ، بقيت أرمينيا ، التي عاد إليها استقلالها التام بفضل انحسار النفوذ الإسلامي ، مركزاً لحضارة عالميــة بارزة . ولقد أشاد الملكان البقرادونيان سمباط الثاني (977–990 م) وخاتشيك الأول (990–1020 م) في مدينة آني كاتدرائية شهيرة ، فضلاً عن عمائر أخرى ، وقد اعتبر كل من ستجيكوفسكي Strzygowski وبالتروزايتيس Baltrusaitis أن لطراز عمارة هذه الأبنية أثراً ما في ارتقاء فن العمارة الأوروبية في القرون الوسطى .

كانت أرمينيا بمثابة درع مسيحي يغطي ظهر الإمبراطورية البيزنطية عند دنوّ المخاطر من جهة إيران ، وهذا ما حدا بالإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني للشروع في الاستيلاء عليها وإلحاقها بإمبراطوريته ، إمارة تلو أخرى . فأجبر أمير واسپوراكان على التنازل له عن ولايته (عام 1022 م) ، وأخذ يعدّ العدّة للإيقاع بمملكة آني البكرادونية . وأكره ملك آني خاتشيك الثاني ، عام 1045 م ، على الخضوع لعملية ضم مملكته إلى بيزنطة .

ثم في عام 1064 م ، قام آخر الأمراء الأرمن ، وهو أمير قارْص Kars ، بتسليم ولايته بدوره إلى الإمبراطورية البيزنطية .

أدّت عملية ضمّ أرمينيا إلى الإمبراطورية البيزنطية إلى توسيع رقعة الحدود البيزنطية بعيداً جداً نحو الشرق ، ولكنها من جانب آخر أدّت إلى زيادة حدّة التنافر المذهبي بين الكنيستين اليونانية والأرمنيّة ، ونجم ذلك عن لجوء الأولى إلى أساليب الإكراه بغية اجتذاب الثانية إلى الحظيرة الأرثوذوكسية . وفوق كل ما ذُكر أسهم هذا التنافر في تسهيل نفاذ الغزو التركي .

الفتوحات السلّجوقية

لم يكن ليقدّر للغزو البيزنطي المعاكس المضيّ بنجاح إلا بسبب انحطاط الإمبراطورية العبّاسية وإصابتها بعوامل التجزئة . ولكن ، في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي حلّ محل العرب في القيادة السياسية لآسيا الإسلامية قوم محاربون أشدّاء ، هم الأتراك الذين أضرموا في الحرب المقدّسة الإسلامية (الجهاد) زخماً وانطلاقة جديدين .

تنتمي هذه الموجة الجديدة إلى قبيلة السلاجقة الأتراك الخارجة من سهوب تركستان ، وكان زعيمها السلطان طُغْرُلْبِك[1] السَّلجوقي بعد غزوه لإيران قد فرض نفسه منذ عام 1055 م كنائب دنيوي لخليفة بغداد ، الذي لم يعد يمثّل سوى السلطة الدينية . وبذلك ، تم عملياً استبدال الخلافة العبّاسية بسلطنة سلجوقية ، والإمبراطورية العربية بإمبراطورية تركية .

كان أول ما فعله السلاجقة أن أخذوا على عاتقهم مهمة متابعة الصراع ضد البيزنطيين ، الأمر الذي كان العرب أهملوه منذ فترة جدّ طويلة . وفي خضمّ هذا الصراع ، وجد الأتراك ذوو النّشأة العسكرية المحاربة مجالاً كبيراً لإجراء فتوحات عظيمة ، وكذلك وجدوا فيه الفرصة المواتية ليثبتوا أمام ناظري العالم الإسلامي برمّته مشروعيّة انفرادهم بالهيمنة عليه[2] .

---

(1) اسمه بالتركية : Toğrul-Bey ، وبالتركية طغرل يعني نوعاً من الطيور الجارحة .
(2) الحق أن مهمّة الدفاع عن الأمة الإسلامية بعد الانهيار الفعلي لدولة بني العبّاس بأواسط القرن الرابع قام به السّلاجقة ثم أتابكتهم وبعدهم آل زنگي فالأيوبيون فالمماليك .

أفلح السلطان السَّلجوقي ألـپ أرسـلان[1] Alp-Arslan (1063–1072 م) في انتزاع القسم الأعظم من أرمينيا من البيزنطيين (فتم لـه فتح آني وقارص عـام 1064 م) . وتولّى إمبراطور بيزنطي مليء بالحمـاس ، هـو رومـانوس الرابـع ديوجينوس Romain IV Diogène إجراء غـزو معـاكس لأرمينيا ، ولكـن دون جدوى ، فقـد كُسر في هزيمة نكراء على يدي السلطان ألـپ أرسلان في معركة ملازكـرد[2] الفاصلة Mantzikert عـام 1071 م ، ووقـع أسيراً في أيـدي أعدائـه السلاچقة . وقد استفحلت عواقب هذه الكارثة من جرّاء الحروب الأهلية التي أدّت خلال عشرة أعوام (1071–1081 م) إلى شلّ القدرة الدفاعيـة البيزنطيـة تماماً في آسيا الصغرى .

وحيال تلاشي النفوذ البيزنطي ، سنحت الفرصة لمغامر نورماندي كـان يعمل في السابق في خدمة الإمبراطور رومان ديوجينوس ، وهو روسّيل دى بـايّول Roussel de Bailleul ، فكاد قبل وصول الأتراك أن ينجح في اقتطاع إمارة مستقلة من جسم الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى (1073–1074 م) . ومـا عتّم هذا المغامر أن لقي مصرعه مسحوقاً ما بين البيزنطيين والأتراك ، ولكن تبقى لهـذه المحاولة أهميتها الخاصة : فهي تعطينا مثالاً جليّاً عـن البـاحثين عـن مغـامرة الحملة الصليبية الأولى .

أَلْفَتْ آسيا الصغرى نفسها مُشرعة الأبواب أمـام السـلاچقة الأتـراك ، فانطلقوا يفتتحون أرجاءها بغاية الحماس ، حتى أن الأمراء البيزنطيين المتنازعين على عرش بيزنطة لم يسعهم إلا الاعتراف بهم كحكـام للمنـاطق التي فتحوها . وكانت النتيجة أن الأتراك اسـتطاعوا بـين عـامي 1078–1081 م احتـلال آسـيا الصغرى برمّتها تقريباً ، سواء في المناطق الداخلية مثل قونية (إيكونيوم Iconium سابقاً) ، أو على الأطراف القصيّة كنيقية وإزمير .

---

(1) الاسم تركي ويعني : الأسد الجسور ، فأرسلان في التركية الأسد . ولا زال الاسم معروفاً بالشام إلى يومنا هذا ، ومن أشهر من سُمّي به الشيخ الصوفي أرسلان الدمشقي .

(2) فتحت هذه المعركة أبواب آسيا الصغرى على مصراعيها أمام السلاچقة الأتراك ، فأسسوا فيها سلطنة عُرفت باسم سـلطنة سـلاچقة الـروم . ويعتبر مؤرخونا العرب هـذا النصر واحداً من أزهى الانتصارات الإسلامية على الروم البيزنطيين ، ورأو فيه الردّ – ولـو بعـد قرن كامل مـن الزمـان – على انتصـارات البيزنطيين على العباسيين والحمدانيين بقيـادة نقفور وابن الشمشقيق في القرن العاشر الميلادي .

وفي نيقية تربّع على سدّة الحكم أحد الأمراء السلاچقة ، هو سليمان ابن قُطْلُمُش ، وكان هذا الأمير في الواقع المؤسس الفعلي للسلطنة السَّلچوقية في آسيا الصغرى ، التي عُرفت باسم دولة «سلاچقة الرّوم» (ثم عُرفت فيما بعد باسم سلطنة قونية) . وقد قُدِّر لهذه السلطنة البقاء ما ينوف على القرنين من الزمان ، من عام 1081 م إلى 1302 م .

أثناء الانعدام العام للسلطة البيزنطية في آسيا ، بقيت بعض المناطق تقاوم الأتراك ، وهي بالتحديد أنطاكية في سورية والرُّها في الجزيرة . ومن جهة أخرى ، منذ أن وقعت أرمينيا تحت الاحتلال التركي ، نزلت جالية أرمنية كثيفة في الرَّها وكيليكية . وبين عامي 1071 م و 1084 م استطاع أحد المغامرين الأرمن ويدعى فيلاريتوس Philarétos ، كان قد خدم سابقاً في جيوش رومانوس ديوجينوس ، استطاع أن يعيد الاعتراف بسيادته على ملاطية ومرعش والرّها وأنطاكية ، وكذلك على كيليكيا .

ثم قضى هذا المغامر نحبه تحت سنابك الزّحف التركي ، وغنم السّلاچقة أنطاكية (عام 1084 م) والرّها (عام 1087 م) وسهل كيليكيا ، ومع ذلك بقي ثمّة بضعة زعماء من الأرمن احتفظوا بما في أيديهم من أملاك في ملاطية وفي طوروس الكيليكي ، وحتى في الرّها التي استعادوها عام 1095 م (وسنرى كيف أن هذا الأمر سيكون له شأنه ضمن مجريات الحملة الصليبية الأولى) .

بغضّ النظر عن هذه الاستثناءات كانت سورية البيزنطية ومثلها الأناضول قد آل ملكهما إلى السلاچقة الأتراك . وقد تسنّم السلطان السَّلچوقي مَلِكشاه (1072–1092 م) مقاليد سلطنة تمتد أرجاؤها من خُراسان إلى خليج إسكندرون وتبلغ حتى حدود مصر جنوباً . لكن بعد وفاته تقسّمت ممتلكات دولته الشاسعة بين أفراد أسرته الحاكمة .

قامت تبعاً لذلك سلطنة سلچوقية في إيران ، استمرّت حتى عام 1194 م ، وسلطنة سلچوقية أخرى في آسيا الصغرى بقيت حتى عام 1302 م ، ومملكتان سلچوقيتان مؤقتتان في سورية ، إحداهما في حلب والأخرى في دمشق[1] .

---

(1) أسّس المملكة تُتُش بن ألب أرسلان السَّلچوقي 1094 م ، ثم حكم ابنه دُقاق دمشق (1095–1103 م) ، وابنه الآخر رضوان حلب (1095–1113 م) فتلاه ابنه ألپ أرسلان ابن رضوان (1113–1114 م) ثم أخوه سلطان شاه بن رضوان (1114–1117 م) .

علاوة على هذه التفرقة ، عـانت الـدول السَّلچوقية في سـورية وإيـران مـن الدسائس التي أدّت إلى التشتت والتفرقة الداخلية التـي راح يسبّبها بشكل خاص الإسماعيلية ، وهو مذهب عربي فارسـي مشترك ، وقد عرفـوا أيضـاً بالحشيشية Assassins ، واستطاع هؤلاء تثبيط عزائم الحكام بما كانوا يبثّونه من دعوات باطنية مناهضة للأعـراف السـائدة ، وبما كـانوا يقترفونـه مـن اغتيـالات سياسـية (1090-1256 م) .

سرعان ما أدّى هذا التشـتّت الإقليمـي والتوتّـر السياسـي إلـى إيقـاف حركـة التوسع التركي في المنطقة ، وكان في كـل ذلـك الفرصـة المواتيـة لإجـراء تدخـل مـن جهة الغرب .

* * *